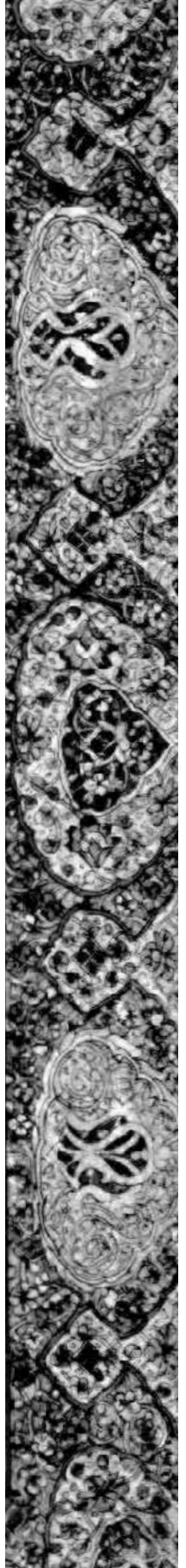


دراسات التحقيق والفهرسة



رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق

د. خالد محمد عبده

باحث بكلية اللغات، جامعة إشبيلية - إسبانيا.

ملخص البحث

تعتني هذه المقالة برسالة العاشق إلى المعشوق في شرح مقولة الصوفي غير مخلوق. تلك المقولة التي حظيت باهتمام من أعلام التصوف الفارسي، ووجدت قبولاً في الأوساط الصوفية على مدار قرنين. وإن تردد بعض المؤرخين في القطع بنسبتها لمؤلف بعينه؛ فمرة تُنسب إلى شيخ الإسلام الهروي الأنصاري الحنبلي صاحب منازل السائرين، وأخرى تُنسب إلى الإمام الخرقاني. وفي رسالتنا هذه نسبها أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي (نجم الدين داية) إلى الخرقاني، وقدم لها شرحاً وافياً. وتأتي أهمية هذه الرسالة من كونها كاشفة عن أثر من آثار المدرسة الكُبراوية. فقد تابع فيها نجم الدين داية شيخه مجد الدين البغدادي واستفاد منه، وحاول أن يطور بعض أفكاره التي دَوَّنَها في كتابه تحفة البررة في المسائل العشرة.

الكلمات المفتاحية: الصوفي غير مخلوق، العاشق والمعشوق، المدرسة الكُبراوية، نجم الدين داية، مجد الدين البغدادي.

The Treatise of the Lover's Message to the Beloved in Explaining that the Sufi is an Eternal Being

Dr. Khaled Abduh

Researcher at the University De Sevilla

Abstract

This article deals with the Lover's message to the Beloved in explaining the Sufi's saying that Sufi is an eternal being. That saying received great attention from the eminent figures of Persian Sufism. It found acceptance in Sufi circles over the course of two centuries. Though some historians hesitated in attributing it to a specific author. It was once attributed to Sheikh al-Islam al-Harāwī al-Ansārī al-Hanbalī, the author of *Manāzil al-Sa'irīn*. While others attributed it to Imam al-Khirqānī. In this paper, Abū Bakr 'Abdullāh b. Šāhāwir al-Rāzī (Najm al-Dīn Dāyah) attributed it to al-Khirqānī. He gave a full explanation for such an attribution. The importance of this treatise comes from the fact that it reveals part of the legacy of the Kubrawiyya school. In it, Najm al-Dīn Dayeh followed in the footsteps and teachings of his sheikh, Majd al-Dīn al-Baghdādī, and tried to develop some of his ideas, which he wrote down in his book *Tuhfat al-Bararah fi al-Masā'il al-'Ašara*.

Keywords: Sufi is an Eternal Being - Lover and Beloved - Kubrawiyya school - Najm al-Dīn Dāyah - Majd al-Dīn al-Baghdādī

مفتتح

[إلى غُزير شمس رحمه الله، محبة ووفاء لحديثه الذي لم يُنشر عن الكُبراوية]

يذكر أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي الملقب بنجم الدين داية (٥٦٤-٦٥٤هـ / ١١٦٨-١٢٥٦م) في مقدمة تفسيره للقرآن، طرقاً من رحلته في طريق الله طلباً للعلم والتحقيق، والتي بدأت أواخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان في سن السابعة والعشرين. خرج من الري ببلدته، وسافر إلى الشام ومصر، وإلى أرض الحجاز، ورجع من طريق مدينة السلام بغداد، حيث أقام في بغداد مدة، ودخل خراسان وخوارزم، وبقي في خوارزم سنتين، ثم رجع إلى العراق مرة أخرى، وطوف بنواحيها، وسافر إلى أذربيجان، ثم رجع إلى خراسان كَرَّةً بعد أخرى، طلباً لسماع الأحاديث عموماً، والتفاسير على وجه الخصوص، وبقي فيها سنين، ثم عاد إلى العراق، وبقي فيها إلى أن أن أوان هجوم التتارية، وذلك في سنة سبع وعشرة وستمائة، ثم سافر من العراق إلى أربيل والموصل وديار بكر، ودخل بلاد الروم، وطوف بها، وأقام بها مدة، ثم رجع إلى أذربيجان، وأقام بها إلى أن ترددت في البلاد أمورٌ ووقائع، وصفها بالعجبية والغريبة. ووجد في أكثر هذه البلاد ونواحيها «المشايخ المعتبرين قدوة أهل السلوك، فضلاً عن أولياء الله من أصحاب الكرامات والزهاد والعباد والنسك والأئمة المحدثين». فزارهم، وتبرك بهم، واستفاد منهم، وقرأ عليهم. وقد كان كُلُّ واحد منهم آنئذٍ فريد دهره، ووحيد عصره.

أما المشايخ المعتبرون، والعلماء الراسخون الذين خُصوا بالتسليك ممن خدمهم نجم الدين داية، وصحبهم، واستفاد منهم، فأربعة هم سادة القوم، وقادتهم، وملوكهم، وسلاطينهم. فالأول منهم مجد الدين البغدادي، الذي وصفه بقوله: «شيخي وشيخ العالم وقدوتي، وقدوة الأمم في العرب والعجم، الذي هو سيدي ومولاي، ومن به في الله تولاي؛ الشيخ السعيد الشهيد، صفوة الله أبو سعيد شرف بن المؤيد بن أبي الفتح البغدادي، الملقب بالمجد عليه السلام، وقدس الله روحه. خدمته بخوارزم خمس سنين، وأخذت منه طريقة السلوك والسير إلى الله، ولي منه خرقة الولاية وإجازتها، وإجازة الحديث والرواية، ملازماً في خدمته، متشرفاً بصحبته، إلى أن استشهد ليلة الاثنين آخر

جمادى الآخرة سنة ست وستمائة، برد الله مضجعه، ونور ضريحه، وجزاه الله عني خير جزاء. فإني ممن أحياء الله بأنفاسه الشريفة، له أيادٍ إلَيَّ سابقة، أعد منها، ولا أعددها»^(١).

وأما شيخه الثاني، فهو الإمام الرباني والشيخ النوراني نجم الدين الكُبرى، الذي عرفه قائلاً: «شيخ وشيخ شيعي مقتدى العالم بالحق، حجة الله على الخلق، أبو الجناح أحمد بن عمر بن محمد بن عبد الله الخيوي^(٢)، الملقب بالنجم الكُبرى، قدس الله روحه، وأكثر فتوحه. كان شيعي في الصحبة والسماع والرواية. استشهد بخوارزم في شهور سنة سبع أو ثمان عشرة وستمائة».

وأما الثالث فالشيخ المطلق والمقتدي بالحق هادي الخلق، أبو محمد محمود بن خزاداذ بن أبي بكر العراقي، الملقب بالتاج الأشنهي^(٣)، نور الله حفرتة، ووسع عليه روضته. يقول عنه: «فقد صحبت بههستان والري وهمدان مدة مديدة، واستفدت منه بهمدان سنين عديدة، ولي منه السماعات والإجازة بخطه في المستجازات. توفي بهمدان في شهور سنة عشرين وستمائة».

وأما الشيخ الرابع، فيصفه بقوله: «فهو شيعي أيضاً وشيخ المشايخ في وقته، مقتدى أهل زمانه، عديم المثل في أقرانه، أبو حفص عمر بن محمد السهروردي الملقب بالشهاب، قدس الله روحه، ونور ضريحه»^(٤).

يؤكد النص السابق صلة المدرستين السهروردية والكُبروية. ويكشف عن هذه الصلة بالنص المباشر الذي يسرده نجم الدين داية عن مشايخه في الطريق الصوفي. ويؤكد ما أشار إليه جيرهارد بورينغ Gerhard Böwering في مقاله عن أعمال شمس الدين الديلمي (ت ٥٩٣هـ / ١١٩٧م) والتي رأى فيها حلقة وصل لسد الفجوة بين المدرسة الكُبروية والسهروردية^(٥). فقد نص نجم الدين

(١) أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي (نجم الدين داية)، بحر الحقائق (تركيا: المكتبة السليمانية، حسن حسني باشا ٣٧): ق ٤/ب.

(٢) الخيوي منسوب إلى خيوق، بلدة من بلاد خراسان، والآن من تبع خوارزم. بكسر الخاء المعجمة من فوق بعدها ياء تحتها نقطتان وفتح الواو بالقاف. راجع علاء الدولة السمناني، رسالة في ذكر أسامي مشايخي (هارفرد: مطبعة جامعة هارفرد، ١٩٨٨): ٣.

(٣) ذكر السمعاني أن هذه النسبة إلى قرية أشنة من بلاد أذربيجان. يُقال في النسبة إليها الأشنهي. وربما بالهمزة الأشنائي. الأنساب (حيدرآباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٢): ١/٢٧٦.

(٤) نجم الدين داية، بحر الحقائق (تركيا: المكتبة السليمانية، حسن حسني باشا ٣٧): ق ٥/أ.

(٥) تشير إلى مقال جيرهارد بورينغ Gerhard Böwering. "The Writings of Shams Al-Dīn Al-Daylamī." Islamic Studies 26, No. 3 (1987): 231-36.

داية على أن تاج الدين الأشنهي، هو أحد مشايخه الكبار. لقد تلقى عنه، ولازمه سنين عددًا. ومن خلال تتبعنا لأعمال الديلمي^(٦)، نقف على كون الأشنهي كان تلميذًا ومريدًا له، حتى إن عمل الأشنهي «غاية الإمكان في دراية المكان» نُسب إلى الديلمي للصلة الكبيرة بينهما^(٧).

كما يفيدنا نص نجم الدين داية في تحديد تاريخ وفاة الأشنهي ومكانها (توفي بهمدان في شهور سنة عشرين وستمئة)، الذي لا يظهر بشكل محدد في أغلب المصادر التي تشير إلى حياته وآثاره^(٨)، ناهيك عن جعلنا نتأكد من تاريخ وفاة مجد الدين البغدادي الذي يحدده التلميذ داية بقوله: «استشهد ليلة الاثنين آخر جمادى الآخرة سنة ست وستمئة». وهو ما ينفي أن تكون وفاة البغدادي في عام ٦١٦ هـ وفق ما نص على ذلك في ترجمته^(٩).

أظهر نجم الدين داية اهتمامًا بأعمال شيخه وكتابات وأقواله، فسجل كثيرًا من مرويات شيخه مجد الدين البغدادي^(١٠) في تفسيره للقرآن، وأورد جزءًا من الحكايات التي كان يرويها الشيخ للتلاميذ في مجالسه. وأفضل مثال على اهتمام داية بكتابات شيخه ما نقله من أفكار ونصوص في كتابه «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد»^(١١). لكنه أوردتها في هذا الكتاب بالعجمية (الفارسية).

(٦) راجع خالد محمد عبده، «عبد الملك الديلمي في الدراسات الاستشراقية وشذرات من تفسيره الصوفي»، مجلة الأبحاث، Leiden: brill 68 (2020): 5-46.

(٧) ناقش مجتبى شمسواري ما يتعلق بكتاب «غاية الإمكان في دراية المكان» في مقالته بالفارسية، برخي يادداشتها دربارہ تفسیر فتوح الرحمان في اشارات القرآن، ومؤلف آن: شمس الدين محمد بن عبد الملك ديلمي همداني، دوره ٢٧، شماره ١٥٧، بهار ١٣٩٥: ١٥-١٦.

(٨) راجع علي الرضا قره بلوط، وأحمد طوران قره بلوط، حيث اكتفيا بذكر اسمه «محمود بن خداداد تاج الدين الأشنهي الهمداني الصوفي المتكلم. عاش في القرن الخامس الهجري تقريبًا». معجم التاريخ، التراث الإسلامي في مكتبات العالم (تركيا: دار العقبة، ٢٠٠١): ٣٥٨٢.

(٩) راجع عبد الرحمن الجامي، نفحات الأُنس من حضرات القدس (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣): ٢/ ٥٨٤.

(١٠) لمجد الدين البغدادي مكانة مميزة في المدرسة الكبروية، أحسن الإشارة إليها فريتز ماير في تحقيقه لعمل الشيخ نجم الدين كبرى «فوائح الجمال وفوائح الجلال». وقد كان لكتابات تأثير كبير في الصوفية اللاحقين، ومن هنا قال علاء الدولة السمناني (ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٦م)، في «رسالة الوارد الشارد الطارد شبهة المارد»: «وإن كنت تشتهي سلوك طريقته، فالواجب عليك أن تظال «تحفة البررة في المسائل العشرة»، تصنيف الشيخ الشهيد مجد الدين البغدادي رُوح الله روحه». حققت الرسالة Kübra Zümürüt Orhan، ضمن دورة التحقيق التي نظمتها مركز البحوث الإسلامية التابعة لوقف

الديانة التركي، ونشرت في İslâm Araştırmaları Dergisi, 40 (2018): 95-173.

(١١) نُشر كتاب «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» أكثر من نشرة في إيران، ومن خلال تصفحننا لمخطوطات السليمانية في تركيا عثرنا على ترجمة له بعنوان: «إرشاد المريدين إلى المراد في ترجمة مرصاد العباد» لقاسم بن محمود القره حصارى،

فلما رأى أن القارئ العربي قد حُرِمَ فوائد كتابه، أَلَفَ كتابًا بالعربية ليكون دليلًا للسالك مستعينًا بما استنبطه من إشارات القرآن، وتلويحات الأخبار، ورموز المشايخ الكبار، وجعل عنوانه «منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله»^(١٢)، بدت فيه استفادته من شيخه مجد الدين البغدادي عَمِيمةً، ففضلاً عن بنائه، نقل أكثر من عشرين ورقة من كتاب تحفة البررة، وتحديداً في فصل السماع، ناهيك عما يتعلق بالشيخ والمريد^(١٣).

ومن الأمور التي تُظهر تأثر نجم الدين داية^(١٤) بشيخه مجد الدين البغدادي اهتمامه بأقوال الخرقاني، فقد أورد البغدادي جملة من أقوال الشيخ الخرقاني في «تحفة البررة». ومن ذلك:

الحنفي (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م)، ويوجد «منتخب المرصاد» مترجم للعربية من الكتاب لا يُعرف مترجمه. تمكنا من مطالعته بفضل إشارة سيد عبد التواب في أطروحته عن التفسير الصوفي للقرآن الكريم (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦): ٣٧١، والتاريخ المثبت لنسخ نص المنتخب ١٢٩٩هـ، وهو ضمن مجموع يشتمل على رسائل للإمام الغزالي (القاهرة: المكتبة الأزهرية، ٧٢٩ حلیم مجاميع ٣٤٧٧٦). ومؤخرًا قدم علي أحمد إسماعيل ترجمة عربية كاملة للكتاب، صدرت بعنوان: «فلسفة التصوف والدعوة إلى الله في كتاب مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» (القاهرة: إيتراك للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢).
(١٢) نشر سعيد عبد الفتاح كتاب «منارات السائرين ومقامات الطائرين» في (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣). ثم أعاد نشره في (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠).

(١٣) أورد أبو بكر عبد الله بن شاهور الرازي (نجم الدين داية) ما يتعلق بالخلوة، نقلًا عن تحفة البررة مصدرًا نقله بهذا النص: «وأما خلوة الأربعينية مع الحق فله شرائط وآداب، سنورد شرائطها كما أورد شيخنا السعيد الشهيد الرباني صفوة الله، أبو سعيد شرف الدين المؤيد البغدادي -رحمه الله- وقدس روحه- في الباب الخامس من كتاب تحفة البررة الموسوم به تبركًا بأنفاسه الشريفة، وتيمناً بالفاطمة اللطيفة. قال -رحمه الله-، «منارات السائرين ومقامات الطائرين» (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣): ٤٠٤-٤٢٤. كما نقل نجم الدين داية فصل السماع من تحفة البررة خاتماً نقله بهذا النص: «إلى هنا ما ذكره الشيخ الشهيد -رحمه الله- من كتابه الموسوم بتحفة البررة تيمناً بميامن كلماته الشريفة وإشاراته اللطيفة متبركاً بنتائج أنفاسه العزيرة، ليكون الكتاب بطراز فوائده مطروّزاً»، منارات السائرين ومقامات الطائرين: ٥١٥-٥٤٦.

(١٤) من الحكايات الطريفة التي تتصل بسيرة مولانا جلال الدين الرومي أن نجم الدين داية كان في قونية، وأسند إليه الإشراف على أمور زاوية قيصرية. وطلب منه أن يؤم المصلين، وكان مأمومًا به في الصلاة جلال الدين الرومي وصدر الدين القونوي. فتلا نجم الدين داية سورة «الكافرون»: ﴿قُلْ يَبْتَئِهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]. وعقب الصلاة التفت الرومي إلى القونوي هامسًا في أذنه: في المرة الأولى حين تلا النجم ﴿قُلْ يَبْتَئِهَا الْكَافِرُونَ﴾ قصدي. وفي المرة الثانية قصدك! راجع: فروزانفر، من بلخ إلى قونية: سيرة حياة مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة عيسى علي العاكوب (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٦): ٨٧. وترد هذه الحكاية في المصادر الفارسية من باب الطرفة، لا من باب الحديث عن التكفير. ذلك أن العلاقة بين صوفية تلك الفترة اتسمت بالتقدير والاحترام. فقد أوصى الرومي (ت ٦٧٢هـ) بأن يكون صدر الدين القونوي (ت ٦٧٣هـ) هو مَنْ يُقِيمُ صلاة الجنائز عليه عند موته. ونعلم زيادة على ذلك أن صدر الدين القونوي كانت صلته وطيدة بتلميذين لنجم الدين الكبرى، هما سعد الدين بن حَوَّثِه (ت ٦٥٠هـ) ونجم الدين داية (ت ٦٧٢هـ). راجع كلود عداس، ابن عربي: سيرته وفكره، ترجمة أحمد الصادقي، ومراجعة سعاد الحكيم (بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠١٤): ٣٦٢.

«ذكر أن طائفة أرادوا سفرًا، وأزمعوا على الذهاب، فخافوا على أنفسهم وأموالهم فُطاع الطريق، فذهبوا إلى خدمة الشيخ أبي الحسن الخرقاني، فقالوا: عزمنا السفر وأزمعنا على الرحيل^(١٥)، ونخاف في الطريق من قطاععها، فعلمنا شيئًا من الأذكار يجرسنا من كيد الأعداء، فقال الشيخ: سيروا على اسم الله، وإذا ظهر الخوف، فقولوا: «أبو الحسن الخرقاني» تنجوا.

فأنكرت طائفة منهم وقالوا: اسم الله تعالى وقوارع القرآن وآية الكرسي وأمثالها أولى من اسم واحد من المخلوقين، وقبلت طائفة، وانصرفوا منطلقين إلى السفر. فلما أدركهم الخوف وقطاع الطريق تخلص من تحصن باسم الشيخ، وهلك من ذكر اسم الله وتمسك بالآيات والدعوات، وأُغير على أمواله، فازداد تعجب الطائفتين. فلما رجعوا، سأل واحد منهم الشيخ عن هذه الواقعة، وقال: يا شيخ أليس اسم الله أعظم من اسم عباده؟ قال: نعم، قال: فكيف هذه الحالة؟ فقال الشيخ: إنكم ذكرتم اسمًا لم تعرفوا مسماه، فما ذكرتموه على الحقيقة، وإنهم/ ذكروا اسم من عرفوه وهو عارف بالحق، فكأنهم ذكروا الحق^(١٦).

تشير كثرة المرويات عن الخرقاني إلى مكانته عند الصوفية. ومما لفت نظر نجم الدين داية مقولة الخرقاني «الصوفي غير مخلوق». ولأنه ما وجد في مسموعاته ولا في منقولاته أن أحدًا من الصوفية من قبل قد رفع القناع عن جمال هذه المقولة التي وصفها بالبكر الغيبي؛ فقد شد الهمة وبدأ في شرحها في رسالتنا هذه، استجابة لطلب أحد السائلين.

آثار نجم الدين داية

إن ما وصلنا من مؤلفات نجم الدين داية عدد قليل، إذا ما قيس بحياته العلمية الثرية. فقد سبقت منه الإشارة إلى أنه ألّف كتابه «مرصاد العباد» قبل أكثر من ثلاثين سنة على تأليفه لكتاب «منارات السائرين». ومن شرح بدء حاله نعرف أنه صاحب جُملة من العلماء الأكابر، وأخذ عنهم. ولعل طريقته في التصنيف تنبئ عن قلم سيال، محب للبيان والشعر والرواية عن أعلام التصوف. وتتخلص آثار نجم الدين داية التي وصلتنا في العناوين الآتية:

(١٥) لعل الأصح: عزمنا على السفر وأزمعنا الرحيل.

(١٦) مجد الدين البغدادى، تحفة البررة في أجوبة المسائل العشرة، مخطوط السليمانية: آيا صوفيا، ١٦٩٥.

- ١- تفسير بحر الحقائق (بالعربية). وهو تفسير للقرآن الكريم تابع فيه نجم الدين داية التقليد الصوفي في تفسير القرآن على طريقة أهل الإشارة^(١٧).
- ٢- رسالة الطيور (بالفارسية). نشرها محمد أمين رياحي^(١٨).
- ٣- رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق. وهي موضوع هذا التحقيق.
- ٤- رسالة عشق وعقل (معيان الصدق في مصداق العشق) (بالفارسية). نُشرت هذه الرسالة أكثر من نشرة في إيران^(١٩).
- ٥- مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد (بالفارسية). وهو أشهر كتبه وأوسعها انتشاراً في الأدبيات الفارسية، والتركية. نُشر أكثر من مرة في نسخته الفارسية الكاملة، ثم نُشرت منه منتخبات ومختارات، وتُرجم إلى التركية والعربية، كما أشرنا آنفاً.
- ٦- مرموزات اسدي در زممورات داوودي (بالفارسية). وهو كتاب يشبه في مطالبه مرصاد العباد. حققه وقدم له محمد رضا شفيعي كدكني^(٢٠).
- ٧- منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله. وهو النسخة العربية التي دونها المؤلف بعد ثلاثين عاماً من تأليفه لكتاب مرصاد العباد. حقق الكتاب سعيد عبد الفتاح، ونشره مرتين الأولى في الكويت، والثانية في مصر^(٢١).

(١٧) الدراسة الوحيدة بالعربية - فيما نعلم - عن هذا التفسير هي دراسة سيد عبد التواب عبد الهادي، والتي نشرها بعنوان التفسير الصوفي للقرآن الكريم (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦). وقد تناول فيها منهج نجم الدين داية في التفسير معتمداً على نسختين خطيتين للتأويلات النجمية، النص الجامع لتفسير نجم الدين الكبرى ونجم الدين داية وعلاء الدولة السمناني. فيما عدا ذلك لم يحقق تفسير نجم الدين داية، ولم يُنشر بالاعتماد على مخطوطاته.

(١٨) راجع نجم الدين داية، رسالة في الطيور (به انضمام رتبة الحيات)، به اهتمام محمد أمين رياحي، (تهران: انتشارات توس، ١٣٧١ق).

(١٩) نشرت الرسالة ضمن مجموعة رسائل بالفارسية تتضمن رسالة للهروي الأنصاري وخواجه المغربي، ورسالة نجم الدين داية تتقدم هاتين الرسالتين. راجع: أركان عرفان «مجموعه چهار رساله مشهور» عقل وعشق، شيخ نجم الدين رازي؛ نور وحدت، خواجه حوراء معروف به مغربي؛ مباحثه شب و روز، رساله عقل وعشق، خواجه عبد الله أنصاري (إيران، انتشارات نور فاطمة، ١٣٦١ق): ٥٠-٥٠.

(٢٠) راجع نجم الدين داية، مرموزات اسدي در زممورات داوودي (تهران: انتشارات مؤسسه مطالعات اسلامي دانشگاه مك گيل شعبي، چاپ اول، ١٣٥٢ق).

(٢١) من اللافت للنظر كثرة مخطوطات كتاب منارات السائرين، والمنتخبات منه، والترجمات إلى التركية. وقد أشرنا فيما سبق إلى أرقام هذه المخطوطات وأماكن توفرها، مما يسهل على من أراد البحث في تاريخ هذا الكتاب وحضوره في المدونات الصوفية العربية والتركية والفارسية.

رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق

يسر الله لي الحصول على ثلاث نسخ خطية من هذه الرسالة. فشرعت في قراءتها. وترجح لدي أن يكون الأصل المعتمد لهذه النشرة نسخة مراد بخاري ٣١٨. وفيما يلي وصف للنسخ الخطية الثلاث وصور لها:

١- نسخة الأصل، وإليها نرسم بحرف الألف. وهي نسخة المكتبة السلিমانيّة بتركيا: مراد بخاري، ٣١٨، بعنوان: «رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق». ويظهر العنوان في الورقة الأولى (٥١ ب). والمخطوط ضمن مجموع يتكون من ٦٧ ورقة. ويتألف مخطوط الرسالة من ٧ ورقات في كل واحدة منها ٢١ سطرًا. وهو كامل استوعب نص الرسالة. وجاء حاشيًا لمقدمة التصنيف التي ينص فيها على طلب الشرح. وخط المخطوط واضح وإن كان النص غير مضبوط بالشكل. ولا ذكر للعنوان في تخطيط الكتاب. وقد أنهى الناسخ هذه النسخة في أواخر صفر ختم بالظفر، سنة إحدى وتسعين وستمائة في بلدة تبريز، حسبما ذكر في التخطيط. وقد نسخ محمد بن الحسين الشيخ الخرقاني. ولا نعرف شيئًا عن هذا الناسخ سوى أنه كان في المدرسة السلطانية في تبريز في القرن السابع الهجري. وفي نهاية كل صفحة يمين إشارة إلى الكلمة الأولى من الصفحة التي تليها، الأمر الذي يؤكد صحة ترتيب الصفحات. ولا يظهر المخطوط أي أثر لملاحظات هامشية أو تعليقات توضيحية بين السطور، باستثناء التصحيحات التي يقوم بها الناسخ والاستدراكات التي تؤكد تصحيحه للنسخة وتحريره لها على نسخة أخرى لم يشر إليها.

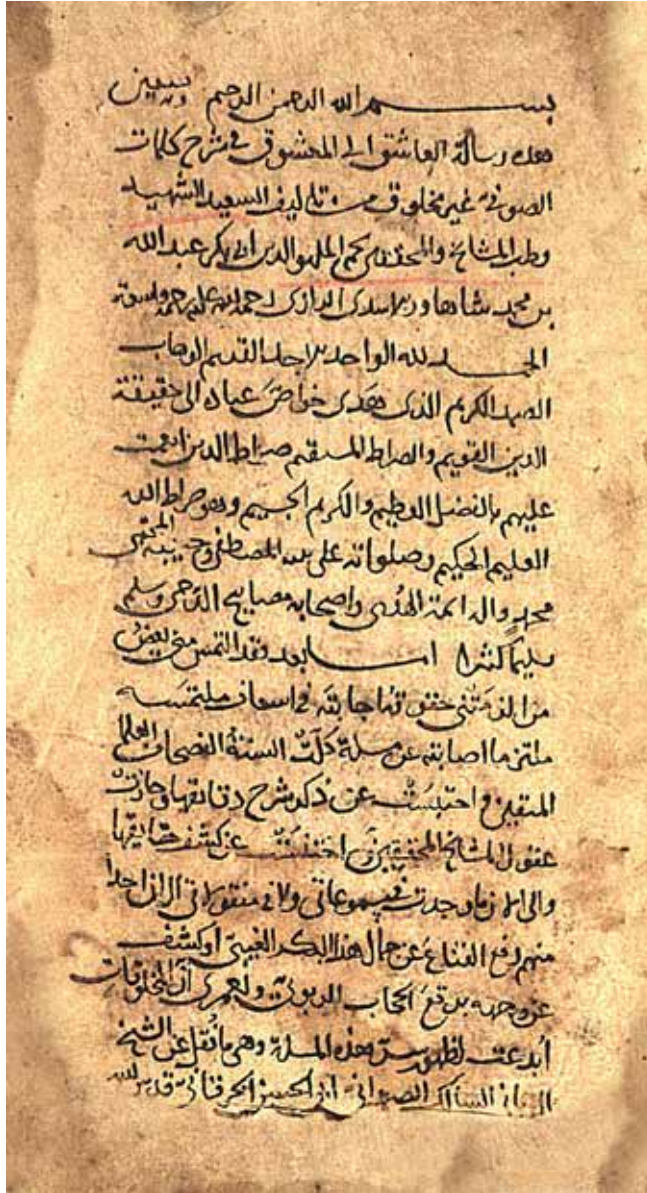
٢- نسخة باريس، وإليها نرسم بحرف الباء. وبياناتها: 'Abd Allāh Ibn Muḥammad Ṣāḥwar Al-Asadī Naḡm Al-Dīn Dāya. Risālat Al-'āsiq Ilā L-Ma'sūq. Arabe 760.

٣- ٥٧-٦١، بعنوان: «رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح قول من قال الصوفي». ويظهر العنوان في الورقة الأولى (٥٧ ب). والمخطوط ضمن مجموع يتكون من ٨٩ ورقة. ويتألف مخطوط الرسالة من ٥ ورقات في كل واحدة منها ١٩ سطرًا. وهو كامل استوعب نص الرسالة. وجاء حاشيًا لمقدمة التصنيف التي ينص فيها على طلب الشرح. وخط المخطوط واضح وإن كان النص غير مضبوط بالشكل. ولا ذكر للعنوان في تخطيط الكتاب. والمخطوط بخط النسخ.

وقد أنهى الناسخ هذه ضحوة نهار الجمعة، ثامن عشر شهر صفر من سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة، حسبما ذكر في التختيم. ولا نعرف شيئاً عن الناسخ. كما لا يُظهر المخطوط أي أثر لملاحظات هامشية أو تعليقات توضيحية بين السطور.

٤- نسخة المكتبة السلিমانيّة بتركيا: جار الله، ٢٠٦١. وإليها نرّمز بحرف الجيم. ولا تحمل الرسالة عنواناً في بدايتها. والمخطوط ضمن مجموع يتكون من ٢٠٤ ورقات. ويتألف مخطوط الرسالة من ورقتين في كل واحدة منهما ٣٧ سطراً. وهو كامل استوعب نص الرسالة. غير أنه جاء خالياً من مقدمة التصنيف التي وردت في النسخ الأخرى، والتي ينص فيها على طلب شرح مقولة الصوفي غير مخلوق. والمخطوط بخط واضح. والنص غير مضبوط بالشكل. ولا ذكر للعنوان أو تاريخ النسخ أو اسم الناسخ في تختيم الكتاب. كما لا يُظهر المخطوط أي أثر لملاحظات هامشية أو تعليقات توضيحية بين السطور، سوى بعض التصحيحات البسيطة.

صور المخطوطات



الصفحة الأولى من مخطوط مراد بخاري.

الموجودات من الصفات وغيره وهو الذي تجل على مرآة قلب
 الصوفي المستقل لتتو الفرض صفاته ومن صفاته جل جلاله
 انه غير محلق فاعلمت انوار هذه الصفة في مرآة قلبه
 فانتفعت بهذه الصفة خلافة عن كنهه المستقل لا
 بنفسه وهذه الدائمة موهبة من مواهب الله عز وجل
 بها الصوفي قائم لم يكن وحده وانما انزل في جوارحه الباطن
 فكان ثم بان فاعلمه وان شايه جاك وهو يدعي بل هو
 عن سكر الله فان قلبه بين اصبع صفة لطفه وتهدى
 فان شاقامه وان شاقامه وكان من دعا الصوف
 اكتمت على الله عليه السلام يا مقلب القلوب ثبت قلب
 عبدك على دينك وطلعت وقد له رب لا تكلفني
 الى نفسي طرفة عين ولا اقل من ذلك فانه من كل الى نفسه
 يعودا الميثاق الى طبعه لا خلاق البشر تبدل السبعة
 والشيطنية كما ان الشمس اذا قلت الليل الى فضاء
 ورفعت المنظر عنها تعود الى ظلمتها الطبيعية وتعد
 جناب القدس لصد ان عن وصمة الاحتياج بالافير
 وتنته عن شين التقييد فلا يقاس الملا بالمراد
 والدليل على الصاروخ الكثر من كنهه وتعد فانتفعت
 على هذا الممداد والممدد وبالله الموفق على محمد
 تمت الرسالة الى يدي الفقير الى الله
 محمد بن الحسين الشافعي
 في اواخر صفر من سنة ١٠٢٠
 في مدينة

الصفحة الأخيرة من مخطوط مراد بخاري.



الورقة الأولى من مخطوط جبار الله.



الورقة الأخيرة من مخطوط جبار الله.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

هذه رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق، من تأليف السعيد الشهيد قطب المشايخ والمحققين نجم الملة والدين، أبي بكر عبد الله بن محمد شاهاور الأسدي الرازي، رحمة الله عليه رحمة واسعة^(٢٢).

الحمد لله الواحد الأحد القديم، الوهاب الصمد الكريم، الذي هدى خواص عبادته إلى حقيقة الدين القويم، والصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم بالفضل العظيم، والكرم الجسيم، وهو صراط الله العليم الحكيم. وصلواته على نبيه المصطفى، وحبيبه المُجتبى، محمد وآله أئمة الهدى، وأصحابه مصابيح الدُّجى، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فقد التمس مني بعض من ألزمتني حقوقه إجابته في إسعاف مُلتمسه ملتزمًا إصابته، عن مسألة كَلَّتْ ألسنة الفصحاء من العلماء المتقين، واحتبست عن ذكر شرح دقائقها، وحارت عقول المشايخ المحققين، واختنست عن كشف حقائقها. وإلى الآن ما وجدتُ في مسموعاتي ولا في منقولاتي أن أحداً منهم رفع القناع عن جمال هذا البكر الغيبي، أو كشف عن وجهه برقع الحجاب الربوبي. ولعمري إن المخلوقات أبدعت لظهور سر هذه المسألة. وهي ما نُقل عن الشيخ الرباني السالك الصمداني أبي الحسن الخرقاني قدس الله/ روحه، وزاد في الفردوس فتوحه، وهو قوله: الصوفي غير مخلوق^(٢٣).

(٢٢) هذه الديباجة تفردت بها نسخة أ، وليست في ب وج.

(٢٣) راجع مجتبى مبنوى، أحوال وأقوال شيخ أبو الحسن خرقاني، منتخب نور العلوم (تهران: كتابخانه طهورى، ١٩٨٠): ٨٠. فقد وردت عبارة الشيخ الخرقاني في هذا الموضوع، وأشار مجتبى في هامش الصفحة إلى رسالتنا هذه التي شرح فيها نجم الدين داية العبارة. وقارن حسن حنفي، من البقاء إلى الفناء: محاولة لإعادة بناء علوم التصوف (بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٩): ١/ ٢٣٥. على أن هذه العبارة تم شرحها من قِبَل الشيخ يوسف بن أيوب بن يوسف الهمداني (ت ٥٣٥هـ) في رسالة بعنوان: «صفاء التوحيد لتصفية المريد»، ونشرها عبد الجليل مسكر نژاد في مجلة معارف مرداد - آبان ١٣٨٠ - شماره ٥٣: ١٥٣-١٦٨. وفيها نسب الهمداني المقولة للشيخ الهروي الأنصاري (ت ٤٨١هـ)، يقول في مقدمتها: «فقد اقترح علي بعض من خيار الطلاب وكبار الأصحاب - جمع الله شملهم وكثر في المسلمين مثلهم - أن أشرح الكلمة المروية عن الإمام شيخ الإسلام، أبي إسماعيل عبد الله محمد الأنصاري الهروي - قدس الله روحه، وأدر عليه فتوحه - وهي قوله: «الصوفي غير مخلوق».

فاستخرتُ الله تعالى، وشرعت بعون الله وحسن توفيقه في تحرير مبانيها وتقرير معانيها، وأسأل الله تعالى أن يفتح عليّ أبواب فضله ورحمته، ويثبت قدمي على الصراط المستقيم^(٢٤) بنظر عنايته ونور رعايته، ويوفقني لإدراك حقائق حكمته، وتيسير بيان إرادته. والمأمول من كمال كرمه وعظيم نعمه بأن^(٢٥) يجيب دعائي، ولا يخيب رجائي. فأقول وبالله التوفيق:

إننا نحتاج في حل مشكل هذه المسألة للتفهم والتفهم، وحفظ الفاهم عن المزلات عند التوهم إلى مقدمات ومثّل، يستعد بها الطالب الراغب لكشف حقائقها ورشف دقائقها. فاعلم^(٢٦) أن الله تعالى لما أراد وأحب أن يُعرّف، خلق الخلق ليُعرّف، كما قال تعالى، حين سأله داود ﷺ، فقال: يا ربّ لماذا خلقت الخلق؟ قال تعالى: «كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأُحِبُّ أَنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِأَنْ أُعْرَفَ».

فخلق بقدرته الكاملة وحكمته الشاملة شجرة المخلوقات بأسرها، علويها وسفليها، ملكيها وملكوتيها، غيبها وشهادتها. ثم جعل ثمرتها آدم ﷺ. فكما أن الثمرة تكون سلالة استُلت من جميع أجزاء الشجرة، كذلك كان آدم ﷺ، استُلت من جميع أجزاء المخلوقات، غيبها وشهادتها/ فكان زبدة العالمين وخلاصتها، مع زيادة لم توجد فيها، وهي ما شُرّف به آدم وأكرم بكرامته، من الروح المشرف بتشريف إضافته إلى الحضرة، وبالنفخة الخاصة، كما قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

ولما كان الله تعالى عالم الغيب والشهادة وأراد أن يُعرّف، فجعل^(٢٧) من شخص آدم مرآة مركبة من الغيب والشهادة، قابلة للتجلي ذاته وصفاته، لها صورة كثيفة من عالم الشهادة، ومعنى لطيف

فتلقته جماعة بالقبول، وتنفرت عنه أقوام من أهل الفضول. فذكرتُ بُدْأً من حقائقه، وشرحتُ نُبْأً من دقائقه، تثبيتاً للمقربين على إقرارهم، وتخريباً على المنكرين قواعد إنكارهم، وإلى الله الرغبة في تزيينه وتحسينه. وسميتُ هذه الرسالة «أصفاة التوحيد لتصفية المرید»: ١٥٩. وقد كتب ولي الله ساكي وميثم خويني مقالة (بالفارسية) بعنوان «مفهوم «الصوفي غير المخلوق» با تأکید بر تعبیر بقا در دو مکتب هجویری ومولوی» تناولوا فيها المقولة وصداها في أعمال الهجویری (ت ٦٥٠هـ) وجلال الدين الرومي. راجع مجلة عرفان إسلامي، دوره ١٤، شماره ٥٥، خرداد ١٣٩٧: ٨٩-١٠٨.

(٢٤) (الصراط المستقيم) في ب، وفي أ (صراط مستقيم).

(٢٥) (بأن) كذا في الأصل، ولعل الأصوب (أن).

(٢٦) من هذا الموضع بداية نسخة ج.

(٢٧) (فجعل) كذا في الأصل، ولعل الأصوب (جعل).



من عالم الغيب، مستعدة لقبول الفيض الإلهي بالتجلي، كما قال ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»^(٢٨)، فتجلي فيه، ليكون بالخلافة عالم الغيب والشهادة، حين يعرف نفسه أنها مرآة يتجلي الله فيها، فيعرف الله، فإنه من عرف نفسه بالمرآة المتجلي فيها ربه، فقد عرف ربه بربه، كما قال ﷺ: «عرفت ربي بربي»^(٢٩).

وهذا سر قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. وحقيقة الأسماء هي ذات الله وصفاته، وغيرها من الأسماء. وتعليمها آدم بتجلي مسمياتها فيه. فافهمه جدًا. ثم إنه تعالى لما جعله متصفاً بصفاته، فعلمه اسم وحدانية ذاته بوحداية نفسه، لأنه كان وحدانيًا في ذاته وصفاته، إذا لم يكن معه في المخلوقات آدم آخر، ولا جنس يشبه جنسيته. وعلمه بتجلي حياته فيه أنه حي، ويسمعه أنه سميع، وببصره أنه بصير، وبكلامه أنه متكلم، وبعلمه أنه عليم، وبقدرته أنه قادر، وبإرادته أنه مريد، وببقائه أنه باقي.

وهذا تحقيق قوله ﷺ أن الله خلق آدم على صورته، أي على صفته. فإنه يُعبّر عن الصفة بالصورة. يُقال صورة هذه المسألة كذا وكذا. ولهذا المعنى كان مختصًا بالخلافة في الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. واختصاصه بالخلافة في الأرض بأنه جعل روحه مرآة قابلة لصفاته في عالم الأرواح خلافة عنه تعالى، بأن كان سميعًا بصيرًا متكلمًا حيًا عالمًا قادرًا مريدًا باقيًا. وجعل قلبه مرآة قابلة لصفات روحه في عالم المملوكات خلافة عن الروح. وكذلك جعل قلبه مرآة قابلة لصفات قلبه في عالم الأجساد، خلافة عن القلب بأن يكون سميعًا بصيرًا متكلمًا حيًا عالمًا قادرًا مريدًا باقيًا. فإذا كمل شخص الإنسان ولم تصدأ مرآة قلبه برين صفات نفسه الأمانة بالسوء وصداء متابعة الهوى، يكون خليفة الله في أرضه، وآدم وقته.

كما كان داود ﷺ مأمورًا به، لقوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. يعني لا تصدأ مرآة قلبك بصداء

(٢٨) (خلق آدم على صورته) في ب، وفي أ وج (خلق آدم). والحديث أخرجه البخاري في الاستئذان، حديث (٦٢٢٧)، ومسلم في البر والصلة، حديث (٢٦١٢).

(٢٩) تُنسب المقولة إلى أبي بكر الصديق ﷺ، وكثيرًا ما توردها المصادر الصوفية وتستشهد بها، ومن ذلك ما أورده الفخر الفارسي الفيروزآبادي (ت ٦٢٢ هـ) في حديثه عن الإيمان، «وقال فيه أبو بكر الصديق: عرفت ربي بربي. رأى قلبي ربي. وقال علي بن أبي طالب: لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينًا». راجع كتاب جَمْعُ النِّهْيِ مِنْ لُمَحَةِ الْمَهْمَا، مخطوط المكتبة السليمانية، ولي الدين أفندي، ١٨٢٨، ورقة ٤٤/ب. وانظر ما أورده القشيري حول هذه الفكرة في الرسالة (جدة، بيروت: دار المنهاج، ٢٠٢٠): ٤٣٤.

الهُوى، فتُحرم عن قبول نور الهدى، وذلك لأن الله تعالى لا يتجلى لشيء كما يتجلى لمرآة قلب الإنسان. فإنه ليس في العالم مصباح يستضيء بنار نور الله، فيظهر/ أنوار صفاته في الأرض خلافة عنه، إلا مصباح سر الإنسان. فإنه مستعد لقبول فيض نور الله، لأنه أُعطي مشكاة جسد فيها زجاجة قلب، كأنها كوكبٌ درِّيٌّ من نور العقل، الذي هو شعاع زيت الروح، في زجاجة القلب، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ من شعاع العقل للعاقل معرفة الله، وَلَوْ لَمْ تَمَسْسُهُ نَارُ نورِ الله، ولم يضيء. وجعل في زجاجة القلب مصباح السر، وفي مصباح السر فتيلة الخفي، وهو سر السر.

فإذا أراد الله أن يجعل في الأرض خليفة تجلّي بأنوار جماله. وجلال المصباح سر الإنسان المنور بنور العقل، الذي لا سبيل له إلى المعرفة الحقيقية. فيكون نور التجلي نوراً على نور العقل. فيهدي الله لنوره فتيلة الخفي من يشاء^(٣٠). فيستنير مصباحه بنار نور الله. فيكون خليفة الله في أرضه. فيظهر أنوار صفاته في هذا العالم بالعدل والإحسان والرفقة والرحمة لمستحقيها، وبالعزة والقهر والغضب والانتقام لمستحقه، كما أخبر الله تعالى عن حال النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ولا تظهر هذه الصفات لا على الحيوانات، ولا على الملائكة المقربين، لأنها من نتائج الأمانة التي/ عرضها الله على السماوات، أي على أهل السماوات وهم الملائكة، والأرض أي على أهل الأرض وهم الحيوانات، والجبال، أي على أهل الجبال وهم الوحوش والطيور، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا لِعَدَمِ اسْتِعْدَادِ حَمَلِهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ لَوْجُودِ اسْتِعْدَادِ حَمَلِهَا^(٣١).

والأمانة في الحقيقة هي الفيض الإلهي بلا واسطة، وهو الذي سماه^(٣٢) الله تعالى نور الله، بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وبقوله: ﴿نُورٌ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]. قال النبي ﷺ: «اتقوا فَرَاَسَةَ الْمُؤْمِنِ، فإنه ينظرُ بنورِ الله»^(٣٣).

(٣٠) يستمد نجم الدين داية هذا المعنى من الكتاب العزيز، من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمَسْسَهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

(٣١) الآية المشار إليها بتمامها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

(٣٢) (سماه) في ب، وفي أ (سميه).

(٣٣) رواه الترمذي، حديث (٣١٢٧)، وقال: حديث غريب.

ثم الدليل على عدم استعداد الملائكة لحمل الأمانة التي هي نور الله بلا واسطة، أنهم خلقوا بنور روحاني لطيف غير مرشش عليه من نور ربه، وهو بمثابة زيت الروح في مصباح الإنسان، ولكنه بمعزل عن مشكاة الجسد، وزجاجة القلب، ومصباح السر، وفتيلة الخفي. فلما عرضت أمانة نور الله على زيت وجودهم النوراني الروحاني الغير^(٣٤) المرشش برشاش نور الله، مع اعتزاز المشكاة والزجاجة والمصباح والفتيلة إلى زيت وجودهم لحملها، وأشفقن من سطوات جلالها وعظمتها.

وأما الحيوانات وإن كان لها مشكاة الجسد وزجاجة القلب، ولكن لم يكن لها زيت الروح العلوي المنور بشعاع العقل، ولا مصباح السر، ولا فتيلة الخفي؛ فلم تستعد^(٣٥) لحمل أمانة نار الله ونوره، وحملها الإنسان، لأنه خُلِقَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ^(٣٦)، مستعداً لحمل أمانة نار نور الإلهية، بأن كانت فتيلة خفية في مصباح سره، موقدة من زيت روحه، المرشش عليه نور نار الله الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفئِدَةِ^(٣٧). ومنها قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَاهُ فَقَدْ ضَلَّ»^(٣٨).

فتنورت زجاجة القلب، واستنارت منها جميع مشكاة الجسد ظاهراً وباطناً، فأشرقت البشرية بنور ربها، فلم يبقَ لظلمات صفاتها مجال الظهور مع استعلاء نور شمس^(٣٩) التجلي. ثم تبدل السير بالجذبة فالجذبة، تبعده البشرية عن أنانيته وتقربه إلى هويته، على قضية «من تقربَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا» إلى أن تورث الجذبة مشاهدة. فالمشاهدة أحضرته معه، وغيبته عن نفسه، إلى أن تثمر المشاهدة المعاينة. فالمعاينة تجمع به، وتفوته عن نفسه، إلى أن ظهر العيان. فالعيان يسحقه، والعين يحرقه. ثم يحققه الحق ويزهق باطله، فيُكاشف بأنوار غيب الغيب، فيطالع أسرار

(٣٤) (الغير) كذا في الأصل، ولعل الأصوب (غير).

(٣٥) (تستعد) في أوب (يستعد).

(٣٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

(٣٧) استمداد من قوله تعالى: ﴿نَارُ آيَةِ الْمُوقَدَةِ. الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٦-٧].

(٣٨) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، حديث (١٥٥٥)، ويُنظر ابن حجر، إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، حديث (١١٩٠٤).

(٣٩) (شمس) في أ، وفي ب (الشمس).

الملك والمملوك بأداة ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. ويؤله في تيه العظُموت والجبروت.

فانمحت الجهات حينئذٍ، وتلاشت الصورُ، وانطمست الأبعاضُ، وانعدمت/ الأجزاءُ، وبسطت^(٤٠) عزة الوجدانية، وتجلي نور الصمدانية الربانية، فتدكدك جبل الإنسانية، وخر موسى الروحانية صَعْقًا، فاحترقت الغيرية بنار الغيرة، وارتفعت الشراكة، وبقيت الوحدة متعززة برداء الكيمياء والعزة، متزرة بإزار العلاء والعظمة، وحده لا شريك له ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

ولعمري إن هذا حال من كُوشف بأسرار كُنْث كَنْزًا مخفياً. فلما كُشف الغطاء وذهب الجفاء وُرُفع الخباء^(٤١) فطويت الأرض والسماء؛ ظهر الخفاء ودام اللقاء فما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى^(٤٢)، ولا القلب ما روى. فرعى في رياض المعرفة، وشرب من حياض المحبة، وسقي بكأس شراب طهور الجلال من دِنِ الوصال. فاستراح من ضروب القيل والقال وكثرة السؤال وتغير الأحوال، إذ تجافى عن المحاط المطلق المحيط به الغيب المحاط المحيط به غيب الغيب المحيط المطلق، فتحقق له حقيقة ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّخِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

كما قيل شعراً [من المخرج]:

أَبَانَ الْحَقَّ لَيْسَ لَهُ^(٤٣) خَفَا وَبَاحَ السِّرَّ وَانْكَشَفَ الْعَطَا
فَنَفْسِي زَائِلَةٌ وَالرُّوحُ بَادَتْ فَلَمْ يَبَقِ التَّكْدُّرُ وَالصَّفَا
تَجَلَّتْ سَطْوَةُ الْجَبْرُوتِ حَتَّى فُنِينَا ثُمَّ قَدْ فَانَى الْفَنَا
بَقَاءُ الْحَقِّ أَفْنَانَا وَأَفْنَى بَقَاءَ فَنَانِنَا ذَاكَ الْبَقَا^(٤٤)

(٤٠) (وبسطت) في أ، وب (وانبسطت).

(٤١) (وذهب الجفاء وُرُفع الخباء) في أ، وب (وذهب الجفاء وُرُفع الجفاء).

(٤٢) استمداد من قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١].

(٤٣) (له) كذا في أ وب وفي مخطوط منارات السائرين ومقامات الطائرين (به) (تركيًا: السليمانية، فيض الله، رقم ١٢٧٥) ورقة ٢٠/أ.

(٤٤) في ب أثبتت الهمزة في (الغطاء، الجفاء، الفناء، البقاء). وقد أورد نجم الدين داية الأبيات في منارات السائرين ومقامات الطائرين منسوبة له (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣)، ٦٠.

فهذا مقام الصوفي الذي أفنى ناسوتيته في لاهوتية الحق تعالى. فبقي معه بلا هو. كما قال تعالى في الحديث^(٤٥) الرباني: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ولساناً، فبي يسمع، وبني يبصر، وبني ينطق، وبني يبطش»^(٤٦) الحديث.

فهذا يشير إلى كمالية مصافاة^(٤٧) الصوفي بينه وبين الله في إزالة كدورة ظلمة الخلقية، بمصقل كلمة لا إله إلا الله عن مرآة القلب، حتى تجردت الكلمة عن كسوة الحروف. وانفتح في عين شمس القلب باب الهوية. وانغمس فيه المنغمس. وتبدلت ﴿الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فعلى قضية شيمة الكرم بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. تتبدل الذاكرة بالمذكورية، والمذكورية بالذاكرية. فيفنى الذاكر المخلوق في الذاكر الغير المخلوق. ويبقى المذكور القديم خليفة الذاكرين. فلما صفا الصوفي عن كدورة المخلوقية بتجلي نور القدم حينئذ إذا طلبت الذاكر^(٤٨) وجدت المذكور. وإذا طلبت المذكور وجدت الذاكر [من الرمل]

فَإِذَا أَبْصَرْتَنَا أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

وإذا أمعنت النظر وجدت الصوفي الحقيقي بهذه الصفة سيد الأولين والآخرين، محمد المصطفى صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين.

ومن بلغ من أمته هذا المقام السني فإنما يبلغ في ظل راية متابعة النبي ﷺ. فإن الله شرف أمته بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فإنه الصوفي الذي أخرج ليلة المعراج عن قرب/ قاب قوسين المخلوقية بمجذبة «ادن مني واقعد بلا هو» على بساط قرب أو أدنى الخالقية في خلق «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»، أراد بالنبي المرسل وجوده المخلوق. وهذا مقام العبدية الخالصة عن رق المخلوقات. وهذا مقامه المحمود،

(٤٥) (الحديث) في ب، وفي أ (حديث).

(٤٦) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة بلفظ مقارب.

(٤٧) (مصافاة) في أ، وفي ب (مضافات).

(٤٨) (طلبت الذاكر) في ب، وفي أ (طلبت).

الذي اختص به. فبعثه ربه إليه، حيث لم يبق له أنانية يُضاف إليه. وقد كان يقول ﷺ: «أما أنا فلا أقول أنا»^(٤٩).

وبه فضّل على الأنبياء، لأنهم من بقايا الوجود المخلوق فيهم. يقولون يوم القيامة: «نفسى نفسى»، وهو ﷺ يقول عند فناء الوجود: «أمتى أمتى». وقد أخبر الله تعالى عن كمالية فناء الوجود المجازي المخلوق وبقائه بالوجود الحقيقي، الذي هو غير المخلوق، بقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وبقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

فهو الذي كان روحه بذر شجرة الموجودات، إذ كان أول شيء تعلقت به القدرة، بقوله ﷺ: «أول ما خلق الله تعالى روحى»، وفي رواية «نورى»^(٥٠). وهو الذي وجد رتبة كمالية الثمرية على شجرة المخلوقات، وإن كان الأنبياء كلهم ثمار شجرة المخلوقات، لأنهم وجدوا هذه الرتبة بتبعيته. إذ لو كان روحه بذر هذه الشجرة لكان شخصه ثمرة شجرة المخلوقات بالأصالة، وغيره من الثمرات تبع له. ولهذا كان يقول: «آدم ومن دونه تحت لوائى/ يوم القيامة»^(٥١). ويقول: «نحن الآخرون السابقون»^(٥٢). يعني السابقين بالبدورية والآخرين بالثمرية. وإنما سُمي حبيب الله لأنه كان المشار إليه بقوله تعالى: «أحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»^(٥٣). فكان هو العارف

(٤٩) لم نقف عليه بلفظه. لكن ثمة حديث مشابه يؤدي هذا المعنى «ما سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ، فَقَالَ: لَا». وهو في صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حُسن الخلق والسخاء؛ وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ شَيْئًا فَقَالَ لَا قَطُّ.

(٥٠) قال السيوطي في تخريج أحاديث شرح المواقيف للجرجاني: لا يحضرني بهذا اللفظ. لكن في مسند ابن عمر المدني عن ابن عباس أن قريشًا كانت نورًا بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام. يسبح ذلك النور. وتسبح الملائكة بتسبيحه. فلما خلق الله آدم أبقي في صلبه. قال رسول الله ﷺ: فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم. ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوين لم يلتقيا على سفاح قط. راجع السيوطي، تخريج أحاديث شرح المواقيف للجرجاني (الكويت: دار الأقيص، ١٩٨٥) حديث رقم ١٢-١٣. جزء من حديث، أخرجه أحمد في مسنده، حديث (٢٦٩٢).

(٥٢) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث (٢٣٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥٣) أوردته العجلوني في كشف الخفاء بلفظ «فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقًا، فعرقتهم بي، فعرفوني»: ١٣٢/٢، حديث (٢٠١٦).

المحسوب، الفاني عن وجوده، الباقي بربه، حتى قال: «عرفتُ ربي بربي، ولولا فضل ربي ما عرفت ربي»^(٥٤). هذا ما أردتُ اختصاره عن قصة طويلة.

[شعر] [من الطويل]

على هذه التُبْدَةِ الْقَصِيرَةِ فَأَقْتَصِرْ ففِي قِصَّتِي طُولٌ وَأَنْتَ مَلُولٌ

فالمأمول من كرم العلماء السادة المشايخ القادة أن ينظروا إلى هذه الباكورة الغيبية بعين الرضا. فإن الإغماض من شيم أولي التُّهَى. وقد قيل: كلام العشاق يُطَوَّى ولا يُروى^(٥٥).

من أراد أن يطلع على كمالية هذه القضية فليطالع كتابي الموسوم بمنارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله^(٥٦). فإنه كاملٌ في هذا المعنى شاملٌ للطريقة المثلَى. ولعلي ما سُبِقْتُ بمثله. والله أعلم. على أني معترفٌ بأن الفضل للمتقدم. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فصلٌ

فإن قيل: إن الصوفي إذا صار أمره أن يكون موصوفاً بصفة غير مخلوقة، فما يكون الفرق بين الله وبين الصوفي في الصفة الغير المخلوق^(٥٧)؟

الجواب، وبالله التوفيق الفرقُ ظاهرٌ. وهو أن الله تعالى كان. ولم يكن معه شيءٌ. وهو صمداني الذات والصفات من الأزل إلى الأبد. وهو خالق كل/ الموجودات من الصوفي وغيره. وهو الذي تجلّى

(٥٤) تُنسب العبارة في المصادر الصوفية إلى ذي النون المصري، وأوردها أبو طالب المكي بلفظ «وقيل لذي النون: بماذا عرفت الرب؟ قال: ربي أجل من أن يُعرف بشيء، ولكن عرفتُ ربي بربي، وعرفتُ ما دون ربي بربي». أبو طالب المكي، علم القلوب (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٤): ١٠١.

(٥٥) كثيراً ما تُقال هذه العبارة في المصادر الصوفية عند شرح الشطحيات. راجع في ذلك كامل مصطفى الشبيبي، شرح ديوان الحلاج (كولونيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٧): ٥٧.

(٥٦) لا يحيل نجم الدين داية على موضع بعينه في كتاب منارات السائرين، ولكنه يفضل أن يطلع القارئ المبتدئ هذا الكتاب ليقف على بيان معاني المقامات الصوفية.

(٥٧) (الصفة الغير المخلوق) كذا في الأصل، ولعل الأصوب (صفة غير المخلوق).

على مرآة قلب الصوفي، المستعدة لقبول فيض صفاته. ومن صفاته جل جلاله أنه غير مخلوق. فانعكست أنوار هذه الصفة في مرآة قلبه. فاتصفت بهذه الصفة خلافة عن الحضرة. لا استقلالاً بنفسه. وهذه الرتبة موهبة من مواهب الله شرف بها الصوفي. وأنه لم يكن موجوداً في الأزل. فأوجده الله تعالى. فكان. ثم بان. فأعدمه. وإن شاء يوجده. وهو بعد غير مأمون عن مكر الله. فإن قلبه بين إصبعي صفة لطفه وقهره. فإن شاء أقامه. وإن شاء أزاغه.

وكان من دعاء الصوفي الحقيقي ﷺ: «يَا مُقْلَبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبَ عَبْدِكَ عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ»^(٥٨). وقوله: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أقل من ذلك»^(٥٩). فإنه من وُكِّلَ إلى نفسه يعود الموشوم إلى طبعه من الأخلاق البشرية، بل السبعية والشيطانية، كما أن الشمس إذا وكلت الليل إلى نفسها ورفعت النظر عنها، تعود إلى ظلمتها الطبيعية. وقد عز جناب القدس الصمداني عن وصمة الاحتياج بالغير. وتزهر عن شين التغير. فلا يُقاس الملائكة بالحدادين^(٦٠).

والدلائل على الفرق المذكور^(٦١) أكثر من تُحصى وتُعد. فاقصرنا على هذا المقدار^(٦٢). والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله أجمعين.

تمت الرسالة على يَدَي الفقير الجاني محمد بن الحسين الشيخ الخرقاني، في أواخر صفر حُتَم بالظفر، سنة إحدى وتسعين وستمائة في بلدة تبريز^(٦٣).

(٥٨) أخرجه الترمذي في جامعه، حديث (٣٥٢٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٥٩) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح. ورواه المناوي في فيض القدير، حديث (١٤٧٨).

(٦٠) هذا مثل في كل شيئين لا تساوي بينهما. راجع محمد بن شريف، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب (المملكة المغربية: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦): ٤٦١.

(٦١) (على الفرق المذكور) في ج، وفي أ وب (عن الفاروق).

(٦٢) عند هذا الموضع تنتهي نسخة ج من دون خاتمة.

(٦٣) خاتمة نسخة ب (كُتِبَ ضحوة نهار الجمعة، ثامن عشر شهر صفر من سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة).

المصادر والمراجع

العربية

- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي (نجم الدين داية)، بحر الحقائق (تركيا: المكتبة السلিমانيّة، حسن حسني باشا ٣٧).
- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي (نجم الدين داية)، مرصاد العباد (المنتخب) (القاهرة: المكتبة الأزهرية، ٧٢٩ حلیم مجاميع ٣٤٧٧٦).
- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي، منارات السائرين ومقامات الطائرين (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣).
- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي، منارات السائرين ومقامات الطائرين (به) (تركيا: السلیمانيّة، فیض الله، رقم ١٢٧٥).
- أبو طالب المكي، علم القلوب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٤).
- بديع الزمان فروزانفر، من بلخ إلى قونية: سيرة حياة مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة عيسى علي العاكوب، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٦).
- حسن حنفي، من البقاء إلى الفناء: محاولة لإعادة بناء علوم التصوف (بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٩).
- السمعاني، الأنساب (حيدرآباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٢).
- سيد عبد التواب، التفسير الصوفي للقرآن الكريم (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦).
- السيوطي، تخريج أحاديث شرح المواقف للجرجاني (الكويت: دار الأقصى، ١٩٨٥).
- عبد الرحمن الجامي، نفحات الأنس من حضرات القدس (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣).

- علاء الدولة السمناني، رسالة في ذكر أسامي مشايخي (هاتفرد: مطبعة جامعة هاتفرد، ١٩٨٨).
- علي أحمد إسماعيل، فلسفة التصوف والدعوة إلى الله في كتاب مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد (القاهرة: ايتراك للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢).
- علي الرضا قره بلوط، وأحمد طوران قره بلوط، معجم التاريخ، التراث الإسلامي في مكتبات العالم (تركيا: دار العقبة، ٢٠٠١).
- الفخر الفارسي، جَمْعَةُ النَهْي من لَمَحَةِ الْمَهَا، مخطوط المكتبة السليمانية، ولي الدين أفندي، ١٨٢٨.
- القشيري، الرسالة القشيرية (جدة، بيروت: دار المنهاج، ٢٠٢٠).
- كامل مصطفى الشبيبي، شرح ديوان الحلاج (كولونيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٧).
- كلود عداس، ابن عربي: سيرته وفكره، ترجمة أحمد الصادقي، ومراجعة سعاد الحكيم (بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠١٤).
- مجد الدين البغدادي، تحفة البررة في أجوبة المسائل العشرة، مخطوط السليمانية: آيا صوفيا، ١٦٩٥.
- محمد بنشريفة، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب (المملكة المغربية: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦).

الأعجمية

- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي، نجم الدين دايه، رساله الطيور (به انضمام رتبة الحيات)، به اهتمام محمد أمين رياحي، (تهران: انتشارات توس، ١٣٧١ق).
- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي، نجم الدين دايه، مرموزات اسدي در مزمورات داوودي (تهران: انتشارات مؤسسه مطالعات اسلامي دانشگاه مك گيل شعبه ي، چاپ اول، ١٣٥٢ق).

- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي، نجم الدين دايه، أركان عرفان «مجموعه چهار رساله مشهور» عقل وعشق، شيخ نجم الدين رازي؛ تدحو رونه، خواجه حوراء معروف به مغربي؛ قشعور لقع ملاسر، زور و بشد مثنابمه، خواجه عبد الله أنصاري (إيران، انتشارات نور فاطمة، ۱۳۶۱ق).
- مجتبی مینوی، أحوال وأقوال شيخ أبو الحسن خرقاني، منتخب نور العلوم (تهران: کتابخانه طهوری، ۱۹۸۰).
- مجتبی شهسوارى، برخی یادداشتها درباره تفسیر فتوح الرحمن فی اشارات القرآن، ومؤلف آن: شمس الدين محمد بن عبد الملك ديلمى همدانى، دوره ۲۷، شماره ۱۵۷، بهار ۱۳۹۵.
- ولي الله ساكى وميثم خوئينى، «الصوفي غير المخلوق با تأكيد بر تعبير بقا در دو مكتب هجویری ومولوى»، مجلة عرفان إسلامي، دوره ۱۴، شماره ۵۵، خرداد ۱۳۹۷، ۸۹-۱۰۸.
- يوسف بن أيوب بن يوسف الهمداني، «صفاوة التوحيد لتصفية المريد»، تصحيح عبد الجليل مسگر نژاد، مجلة معارف مرداد - آبان ۱۳۸۰ - شماره ۵۳، ۱۵۳-۱۶۸.
- Böwering, Gerhard. "The Writings of Shams Al-Dīn Al-Daylamī." Islamic Studies 26, No. 3 (1987): 231-36.

